

- ۲۳۔ وحید الدین، سید، روزگار فقیر، لاہور، امجد اکیڈمی، س، ن، ص ۶۶
- ۲۴۔ ششماہی روشنی، ص ۱۵، شمارہ: ۱۰، جنوری تا جون ۲۰۱۰ء
- ۲۵۔ نعیم صدیقی، عورت معرض کشمکش میں، لاہور، الفیصل ناشران و تاجران کتب، ۲۹۹۳ء، ص ۱۳۳
- ۲۶۔ موسیٰ خان، جلال زئی، این جی اوز اور قومی سلامتی کے تقاضے، فیروز سنز، لاہور، ۲۰۰۰ء، ص ۶۸، ۶۷
- ۲۷۔ سمیرا حیل، قاضی، نیا دور، نیے چیلنجز اور مسلمان عورت، ص: ۵، لاہور، ویمن اینڈ فیملی کمیشن
28. wilkins, Richard G. Prof, Protecting the family and marriage in a global society, Encounter journal of intercultural perspective, Vol 16, Sep 2000
- ۲۹۔ روزنامہ پاکستان، ۳ اگست ۲۰۱۲ء
- ۳۰۔ بنت رانا عبدالستار، ماہنامہ: نقیب ختم نبوت، پاکستان، شمارہ: ۸، اگست ۲۰۱۱ء
- ۳۱۔ ماہنامہ محدث، ستمبر ۲۰۰۰ء، ج: ۳۳، ش: ۹، ص ۲-۶
- ۳۲۔ سہ ماہی خبرنامہ، فروری ۱۹۰۰ء، ج: ۱، ش: ۱، ص ۲۰
- ۳۳۔ سہ ماہی خبرنامہ، فروری ۲۰۰۰ء، ج: ۶، ش: ۱، ص ۳
- ۳۴۔ ماہنامہ صدائے آدم، فروری ۲۰۰۰ء
- ۳۵۔ ماہنامہ جہد حق، پاکستان کمیشن برائے انسانی حقوق، مارچ ۲۰۱۳ء، ص ۲۷
- ۳۶۔ ایضا
- ۳۷۔ این جی اوز اور قومی سلامتی کے تقاضے، ص: ۱۴۱-۱۴۰
- ۳۸۔ ماہنامہ ترجمان القرآن، ستمبر ۲۰۰۶ء، ج: ۳۳، ش: ۹، ص ۶۲
- مزید تفصیلات کیلئے: ماہنامہ محدث، مئی ۱۹۹۹ء، ج: ۳۱، ش: ۵، ص ۵۹-۵۶

التزام القرطبي شروطه في التفسير

(دراسة تحليلية)

هارون الرشيد*

إن خير ما بذلت فيه الجهود واشتغل به العلماء تعليما وتفسيرا وتفهما ودراسة واستنباطا كتاب الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مُتَيَدِّيهٖ لَأَمِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ (1) فهو كتاب هداية ودستور أمة هي خير أمة أخرجت للناس ، ولقد تكفل الله بصيانته وحفظه كما قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ ذُرِّيَّتُنَا الذَّكُورُ وَإِنَّا لَهْلُحَافَتُونَ﴾ (2)

ويسر درسه كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ يَمْنُوكُ﴾ (3)

وإن من وسائل حفظه وتيسر درسه أن يهتم زبدة العلماء قديما وحديثا بتفسيره وتوضيح غامضه والكشف عن أسرارهِ وبيان عجائبهِ ، والإحاطة بآيات الأحكام فيه لمعرفة الحلال والحرام والوقوف عند المأمورات والنهايات واستنباط حكم الأحكام والتشريعات.

ولقد كان للعلماء القدامى رحمهم الله اليد الطولى في تفسير القرآن بوجه أعم وفي تفسير آيات الأحكام بوجه أخص ، فهم الذين أسسوا طرق الاستنباط والاجتهاد ورسموا مناهج ومعايير لتفسير آيات الأحكام اتبعها المفسرون الجدد في مؤلفاتهم فيما بعد فكشفوا لهم عن مناهج وأساليب جديدة مما أدى إليه اجتهادهم.

والمراد بمناهجهم الطرائق والخصائص والشروط التي تميز بها مؤلفاتهم والتي اتبعوها في تفاسيرهم فأصبحت قواعد لهم في تفاسيرهم أو أصبحت مميزات وخصائص لهم فيها. ولمعرفة مناهجهم وشروطهم طريقتان: أحدهما: أن يعلم شروط المفسر ومنهجه عن طريق الاستقراء التام أو الاستقراء الأغلب حيث يتبع تفسيره من أوله إلى آخره أو يتبع أغلبه فيعرف منهجه وشروطه التي اتبعه فيه.

ثانيهما: أن ينص المفسر على شروطه في بداية تفسيره أو في مواضع متفرقة منه فتكون تلك الشروط المنصوصة منهجا له متبعا في تفسيره كما نص ابن كثير وأبو حيان في تفاسيرهما وكما نص الإمام القرطبي عليها بوضوح في مقدمة تفسيره الذي يعتبر من أجل التفاسير وأعظمها نفعا.

فهذه الشروط التي نص عليها القرطبي - والتي نحن بصددنا في هذا المقال - نذكرها من مقدمة المؤلف ثم نبين مدى التزامه بها في تفسيره مع بيان بعض الأمثلة منه.

قال القرطبي رحمه الله في مقدمة تفسيره: " وشروطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفها ، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيرا ما ينجى الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فبقي من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم . فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلي من أخرجه من

*أستاذ مساعد قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد، باكستان

الأئمة الأعلام والثقات المشاهير من علماء الإسلام ونحن نشير إلى جل من ذلك في هذا الكتاب والله الموفق.
للصواب . وأضرب عن كثير من قصص المفسرين . وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بد منه ، ولا غنى عنه
للتبيين ، واعتصت من ذلك تبين أي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فضمنت
كل آية تتضمن حكماً أو حكماً فما زاد مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول ، والتفسير ، والغريب ،
والحكم . فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ... وهكذا إلى آخر الكتاب . " (4)
نلخص هذه الشروط فيما يلي:

- 1- إضافة الأقوال إلى قائلها ونسبة الأحاديث إلى مخرجها ، لا سيما الأحاديث المهمة من حيث التخريج الواردة
في كتب الفقه والتفسير حتى يسهل الاحتجاج والاستدلال بها .
- 2- الإعراض عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا إذا دعت الحاجة إليها لتبيين شيء من كلام الله
وذلك في أضيق الحدود .
- 3- الاهتمام بتبيين آيات الأحكام وتفسيرها بذكر ما لها من أسباب النزول ، وتفسيرها ، وشرح غريبها
وتوضيح الأحكام الواردة فيها .
- 4- الاكتفاء بذكر التفسير والتأويل للآيات التي لم يرد فيها حكم .

الذي يقرأ هذا التفسير يجد أن القرطبي رحمه الله قد وفي بما شرط علي نفسه في هذا التفسير إلى حد
كبير فهو يعرض لذكر أسباب النزول ، والقراءات ، والإعراب ، وبين الغريب من الألفاظ ، ويحكم كثيراً إلى
اللغة ، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب ، ويرد علي الفرق كالمعتزلة والقدرية والروافض والفلاسفة وغلاة
التصوفة ، ويفيض في ذكر الأحكام مع بيان الخلاف فيها .

وسبب هذا التبحر العلمي وسعة الاطلاع كثرة موارد التي استقي منها تفسيره ، فمن أهم مصادره:
تفسير ابن جرير الطبري ، انحرر الوجيز لابن عطية ، أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص ، أحكام القرآن
لأبي بكر بن العربي المالكي ، أحكام القرآن للكنيا الهراسي ، النكت والعيون للماوردي ، بحر العلوم للسمرقندي ،
معالم التنزيل للبيهقي ، الوسيط للواحدي وأسباب النزول له أيضاً ، معاني القرآن وإعراب القرآن والناسخ
والمנסوخ للنحاس ، التمهيد والاستذكار لابن عبد البر ، معاني القرآن لكل من الأخفش والقراء والزجاج ، مجاز
القرآن لأبي عبيدة ، القيس شرح الموطأ لابن العربي ، المدونة لأقوال مالك ، المنتقى لأبي الوليد الباجي ، عقد
الجواهر الثمينة لابن شاس ، البرهان للجويني ، غريب القرآن لابن قتيبة ، غريب الحديث والناسخ والمسنوخ لأبي
عبيد القاسم بن سلام ، معالم السنن وأعلام الحديث للخطابي ، جامع البيان والتيسير والمقنع لأبي عمرو الداني ،
الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري ، مجمل اللغة لابن فارس ، تهذيب اللغة للأزهري ، الكتب التسعة في الحديث ،
مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، مسند البزار ، صحيح ابن حبان ، سنن الدارقطني ، سنن البيهقي ، السير والمغازي
لابن إسحاق ، المغازي للواقدي ، وغير ذلك من المصادر العلمية .

عزوه الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مخرجها

وكان القرطبي يعزو الأقوال إلى قائلها غالباً كما شرط علي نفسه في المقدمة ، وقد كان ينسب القول إلى
غير فأنه أو نحمل نقله علي أنه نقله عنه بواسطة ، فمثلاً في بيان الأحرف السبعة نقل قولاً عن ابن عبد البر فقال:

" قال ابن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن إلى حرف واحد. " (5)

هذا القول في الحقيقة ليس لابن عبد البر وإنما هو قول الإمام الطحاوي الذي ذكره في كتابه " مشكل الآثار " (6) وقد نقله عنه ابن عبد البر بتامه في كتابه " التمهيد " (7) فيمكن أن يكون نقله عن الطحاوي بواسطة ابن عبد البر.

ومن أسلوبه في عزو الأحاديث إلى مخرجها أنه يذكر نص الحديث بتمامه ثم يعزوه إلى من خرج هذا النص ويعزوه كذلك إلى من خرج ما يؤيد معنى ذلك النص ، فيجب التنبيه إلى هذا الأسلوب حتى لا ينسب إليه الخطأ أو الوهم في العزو ، مثاله قوله في مقدمة تفسيره في موضوع جمع القرآن: " قال ابن شهاب: واختلفوا يومئذ في ((التابوت)) فقال زيد: ((التابوت)). وقال ابن الزبير وسعيد بن العاصي: ((التابوت))، فرفع اختلافهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه بالتاء ، فأنزل بلسان قريش. أخرجه البخاري والترمذي. " (8) فهذا نص سنن الترمذي (9) إلا أن الإمام البخاري خرج في صحيحه ما يؤيد معنى هذا النص ، فأخرج عن ابن شهاب بسند أنس بن مالك أن عثمان أمر زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف وقال لهم إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فإن القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا. (10)

وقد يكون من عنده تصرف في النقل بحيث أن العزو يشير إلى أن الرواية المذكورة موجودة في المرجع المعروف مع أن الأمر لا يكون هكذا. مثاله ما نقله عن ابن عبد البر في قراءة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ جَنَّتُهُمْ بِحِينٍ﴾ (11) حيث نقل: " وقال آخرون: أما بدل الهمة عينا ، وبدل حروف الحلق بعضها بعض ، فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجلة ، واحتجوا بقراءة ابن مسعود: ﴿لَيْسَ جَنَّتُهُمْ بِحِينٍ﴾ ، ذكرها أبو داود. " (12)

فقوله : " ذكرها أبو داود " يوهم أنها في سننه مع أنها ليست مذكورة في سننه وإنما هي رواية رواها ابن عبد البر بإسناده من طريق أبي داود حيث قال: " أخبرنا عبد الله بن محمد قال حدثنا محمد بن بكر قال حدثنا أبو داود قال حدثنا الحسن بن علي الواسطي قال حدثنا هشيم عن عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب الأنصاري عن أبيه عن جده أنه كان عند عمر بن الخطاب فقرأ رجل ﴿مَتَعَدِمَارَأُوَالْبَابِلَ لَيْسَ جَنَّتُهُمْ بِحِينٍ﴾ فقال عمر من أقرأكها ، قال أقرأنيها ابن مسعود. " (13)

وأحيانا يحصل عنده نوع من اللبس في اسم المؤلف عند العزو فيكرر النقل عنه في موضوع واحد ظنا منه بأنهما شخصان، مع أنه شخص واحد وكان يكفي النقل عنه مرة واحدة. مثاله ما نقل عن قطرب في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْجَهْرُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ لَا مَنَظْلَمَ﴾ (14) حيث نقل: " وقال ابن المستنير: ((لَا مَنَظْلَمَ)) معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول كفر أو نحوه فذلك مباح. والآية على هذا في الإكراه، وكذا قال قطرب: ((لَا مَنَظْلَمَ))، يريد المكره ؛ لأنه مظلوم ، فذلك موضوع عنه وإن كفر، قال: ويجوز أن يكون المعنى ((لَا مَنَظْلَمَ)) على البذل، كأنه قال: لا يجب الله إلا من ظلم ، أي لا يجب الله الظالم ، فكانه يقول: يجب من ظلم، أي يأجر من ظلم. والتقدير على هذا القول : لا يجب الله ذا الجهر بالسوء إلا من ظلم على البذل " (15)

فقال: " وكذا قال قطرب " يوهم أن قطرب شخص آخر غير ابن المستير مع أن قطرب هو نفسه ابن المستير تلميذ سيبويه ، ذكر ابن خلكان ترجمته فقال : " أبو علي محمد بن المستير بن أحمد النحوي اللغوي البصري ، مولى سالم بن زيادة ، المعروف بقطرب ، أخذ الأدب عن سيبويه وعن جماعة من العلماء البصريين ، وكان حريصا على الاشتغال والتعلم ، وكان يكر إلى سيبويه قبل حضور أحد من التلامذة ؛ فقال له يوما : ما أنت إلا قطرب ليل ، فبقي عليه هذا اللقب ، وقطرب : اسم دوية لا تزال تدب ولا تفتت . وله من التصانيف كتاب معاني القرآن . " (16)

وفي الحقيقة ما نقله عن ابن المستير ، نقله عنه بواسطة ابن عطية عنه في إخراج الوجيز (17) ، إلا أنه لم يشر إليه . وما نقله عن قطرب ، نقله عنه بواسطة النحاس عنه في معاني القرآن (18) من غير الإحالة إليه . وقد لوحظ أيضا عند عزو الأحاديث إلى رواها أنه حصل شيء من السهو في عزو بعضها حيث نسبها إلى غير رواها ، فمثلا حديث أبي هريرة بن مسعود رضي الله عنهما حيث قال : " روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا ، فهو يهوي في النار الآن ، حتى انتهى إلى قعرها . " (19)

هذا حديث رواه الإمام مسلم وابن حبان وأحمد بن حنبل وأبو يعلى الموصلي ، كلهم روه بأسانيدهم عن أبي هريرة رضي الله عنه . (20)

مثال آخر ، حديث عبد الله بن أبي أوفى الذي نسب لأبي واقد رضي الله عنه ، حيث قال : " روى ابن ماجه في سننه والبيهقي في صحيحه عن أبي واقد ، قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، قدمت الشام ، فرأيتهم يسجدون لبطارقهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك ، قال : فلا تفعل ؛ فإن لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق رها حتى تؤدي حق زوجها ، حتى لو سألها نفسها وهي علي قتب لم تنعه . " (21)

فهذا حديث رواه ابن ماجه وابن حبان وأحمد بن حنبل عن عبد الله بن أبي أوفى (22) ، ورواه البزار عن زيد بن أرقم (23) ، ورواه ابن أبي شيبة عن أبي ظبيان (24) ، ولكن لا يوجد لهذا الحديث طريق فيه أبو واقد الليثي رضي الله عنه .

التزامه بتبيين آيات الأحكام وتفسيرها :

هذا شرط التزام القرطبي به واضح وجلي هو الموضوع الرئيسي لتفسيره والطابع الغالب عليه ، ففري أنه يفيض في ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب ، وما تعلق بها عن بعد ، مع بيان أدلة كل قول . وأحيانا يستطرد في ذكر المسائل إلى درجة أن القارئ يظن أن ما ذكره من مباحث لا تمت إلى التفسير بصلة ، ولكن المسألة نظرية ؛ لأن المذكور ربما يكون استطرادا لا طائل تحته في نظر قارئ ، بينما يكون نفس المذكور في نظر الآخر في غاية الأهمية ، فمن هنا لا يكون اتقاهم باستطراد غير مفيد عدلا .

مثال ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿اسْكُنْ أَتَوْزَّجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (25) حيث ذكر معنى (اسْكُنْ) والمشتقات الأخرى من نفس المادة في ضوء استعمالات العرب ، ثم عقد المسألة الثانية من مسائل الآية وذكر فيها بعض المسائل المتعلقة بالسكنى ومفهوم ما يمثّل السكنى من الأشياء التي تكون علي ملك أربابها ، ومنافعها لمن جعلت له ، كالعمري ، والرقبي (العمري: هي إسكانك الرجل في دار لك مدة عمرك أو عمره ، ومثله الرقبى: وهو أن يقول: إن مُتْ قبلي رجعت إلي ، وإن مُتْ قبلك فهي لك ، وهي من المراقبة ، لأن كل واحد منهما يرقب موت صاحبه) ، والإفقار والإخيال (مأخوذ من فقار الظهر ، أفقرتلك ناقي: أعرتك فقارها لتركبها ، ومثله الإخيال ، يقال: أخيلت فلانا: إذا أعرتة ناقة يركبها ، أو فرسا يغزو عليه) ، والمنحة (العطية) ، والمنحة: منحة اللبن ، والمنيحة: الناقة أو الشاة يعطيها الرجل آخر يحتلبها ثم يردّها) ، والإطراق (إعارة الفحل) ، استطرق فلان فلانا فحله: إذا طلبه ليضرب في إبله ، فأطرقه إياه ، ويقال: أطرقني فحللك أي أعرتني فحللك ليضرب في إبلتي ، وطرق الفحل الناقة يطرق طروفا أي قما عليها). (26)

فهذه الكلمات يمثّل السكنى في معناه من حيث أن الشيء يبقى علي ملك صاحبه والمنفعة تكون لمن جعلت له؛ فهذه المناسبة (وهي واضحة جلية) ، ذكر القرطبي مفهومها العام وشياً من مسائل السكنى والعمري في غاية الاختصار لا يتجاوز عن بضعة أسطر، لكن رغم ذلك تعقبه أبو حيان في البحر بقوله: " وقد تكلم بعض الناس علي أحكام السكنى والعمري والرقبي ، وذكر كلام الفقهاء في ذلك ، واختلافهم حين فسر قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَتَوْزَّجُكَ الْجَنَّةَ﴾ ، وليس في الآية ما يدل علي شيء مما ذكر. " (27)

وهذا الالتزام ظهر أن هذا التفسير أصبح موسوعة في تفسير آيات الأحكام ؛ لأن القرطبي رحمه الله حاول محاولة موفقة لاستيعاب ما يتعلق بآيات الأحكام كما وصفه ابن العماد في الشذرات: " والتفسير الجامع لأحكام القرآن ، الحاكي مذاهب السلف كلها ، وما أكثر فوائده ، وكان إماما علما ، من الفواصين علي معاني الحديث ، حسن التصنيف، جيد النقل. " (28)

التزامه بالاكتفاء بذكر التفسير والتأويل للآيات التي لم يرد فيها حكم:

نص الإمام القرطبي في الشروط التي ذكرها في مقدمة تفسيره علي هذا الشرط وهو أنه سيكتفي بذكر التفسير والتأويل للآيات التي لم يرد فيها حكم ، وذلك حتي لا يظن أحد أن الطابع الغالب علي التفسير هو الاستطراد والتفصيل في المسائل الفقهية فرمما صاحب الكتاب يمر مرور الكرام علي الآيات التي ليس فيها حكم من الأحكام الفقهية! فقد تبين بدراسة هذا التفسير أن القرطبي رحمه الله التزم بهذا الشرط التزاما كاملا وفسر تلك الآيات تفسيرا أحسن من كثير من التفاسير الموجودة في ذلك العصر ، حيث فسرها بذكر أسباب العول لها ، وإبراز وجوه البلاغة فيها ، وبذكر القراءات وأنواع الإعراب فيها ، وبيان أقوال علماء المعاني في شرح مفرداتها وتوضيح غريبها فكان تفسيره موسوعة في هذا النوع أيضا كما أنه موسوعة في استيفاء الأحكام والمسائل الفقهية.

وخير دليل علي هذا النوع تفسيره للسور المكية التي خوطب فيها أهل مكة بصفة خاصة الذين كانوا ألداء في الخصومة ، أهل ممارسة ولجاجة في القول عن فصاحة وبيان ، وثنيين مشركين ، منكبين ومكذبين الوحي ؛ فلما كان القوم كذلك نزل الوحي المكّي قوارع زاجرة وشها منذرة وحججا قاطعة يحطم وثنيهم في العقيدة

ويدعوهم إلى التوحيد الخالص ويقيم دلائل النبوة ويحثهم على فصاحتهم - بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فلم يكن ذكر الأحكام العملية قبل بناء العقيدة وترسيخها في القلوب مناسباً.

نذكر من تفسيره بعض النماذج لالتزام هذا النوع من التفسير، فمثلاً:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿٢٩﴾ ذكر خمس مسائل: الأولى منها تشتمل علي بيان وجه المناسبة لذكر الحمد في بداية السورة مع أن غيرها -رهي الفاتحة- قد افتتح بالحمد لله وكان الاجتزاء به مغنيا عن ذكره هنا لكنه قال: " لكل واحدة منه معني في موضعه لا يؤدي عنه غيره من أجل عقده بالنعمة المختلفة وأيضا لما فيه من الحجة في هذا الموضع علي الذين هم بريهم يعدلون." (30)

وذكر في المسألة الثانية معنى كلمة الخلق تعني الاختراع والتقدير وكلاهما مراد هنا. ثم ذكر أن التعبير بالخلق دليل على حدوث السماوات والأرض وأن الله تعالى خالق كل شيء ، فرفع السماء بغير عمد وجعلها مستوية من غير أود وجعل فيها الشمس والقمر آيتين وزينها بالنجوم وأودعها السحاب والغيوم علامتين وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات وبث فيها من كل دابة آيات جعل فيها الجبال أوتادا وسيلا فجاءا وأجري فيها الأنهار والبحار وفجر فيها العيون من الأحجار دلالات على وحدانيته وعظيم قدرته وأنه هو الله الواحد القهار وبين بخلقه السماوات والأرض أنه خالق كل شيء. (31)

وذكر في الثالثة كلاما طويلا نقلنا عن البيهقي في سند الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا في شأن خلق الأرض قال: " أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْ فَقَاةٍ لَخْلَقَ اللَّهُ هَجْرًا وَجَلَّاتُ بَيْتُ الْمَسْنُونِ خَلَقَ فِيهَا الْجِبَالُ يَوْمَ مَا لَمْ يَخْلُقْ الشَّجَرُ يَوْمَ مَا لَمْ يَنْبِتْ خَلَقَ الْمَكْرُ وَهَيْمًا ثَلَاثًا وَخَلَقَ الثَّوْرَ يَوْمَ مَا لَمْ يَبْعَ وَبَقِيَّتُهَا الدَّوَابُّ يَوْمَ مَا لَمْ يَخْمِسْ وَخَلَقَ دُمُوعًا يَوْمَ مَا لَمْ يَخْلُقْ خَبْرًا خَلَفَ فِي خَبْرِ الْخَلْقِ خَبْرَ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِي مَا يَنْتَهِى الْعَصْرُ إِلَى اللَّيْلِ " (32)

وفي المسألة الرابعة فسر جملة: ﴿وَجَعَلْنَا الظُّلُمَاتِ نُورًا﴾ فرأى أن هذا ذكر خلق الأعراض بعد ذكر خلق الجواهر لكون الجوهر لا يستغني عنها وما لا يستغني عن الحوادث فهو حادث. ثم فسر الجواهر والعرض واستنتج أن هذه المصطلحات وإن لم يكن لها ذكر في الصدر الأول فقد دل عليها معنى الكتاب والسنة فلا معنى لإنكارها وقد استعملها العلماء واصطلحوا عليها وبنوا عليها كلامهم وقتلوا بما خصومهم. ثم ذكر معنى الظلمات والنور وأبرز وجها بلاغيا في أن الأرض المذكور في الجملة السابقة اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمعولة جمعها وكذلك النور وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق فيكون الجمع معطوفا على الجمع والمفرد معطوفا على المفرد فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة ، وقيل: جمع الظلمات ووحده النور ؛ لأن الظلمات لا تعدى والنور يتعدى. (33)

أما المسألة الخامسة ففيها تفسير لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَئِنْ كَفَرُوا بِرَّهْمِ يَعْدِلُونَ﴾ حيث ذكر معنى يعدلون ، ثم نقل عن ابن عطية سر اختيار العطف بـ {ثم} بدل الواو فقال إن {ثم} دالة علي قبح فعل الكافرين لأن المعنى: أن خلقه السماوات والأرض قد تقرر وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين ثم بعد ذلك كله عدلوا برهم فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنيت إليك ثم تشمتني ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه ثم. (34)

مثال آخر مأخوذ من تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِهِ إِنَّا نَفَعُ الْإِنْسَانَ مَا لَا يَأْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ رُحُونُ الْفَلَاحِ﴾ (35)

حيث ذكر سبب الروول لهذه الآيات نقلا عن ابن عباس وهو أنه لما نزلت ﴿اقْرَبْتِ السَّاعَةَ وَالشَّقُّ الْقَمَرُ﴾ (36) قال الكفار: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا فقالوا: ما نري شيئا فقلت: ﴿اقْرَبْتِ السَّاعَةَ حِسَابُهُمْ﴾ (37) فإشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فامتدت الأيام فقالوا: ما نري شيئا فقلت: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِهِ﴾ (38)

ثم ذكر أن {أَنِّي} بمعنى يَأْتِي لأن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آت لا محالة. ثم أطل في بيان القراءات في {يَنْزِلُ الْمَلَكُ} حيث ذكر ست قراءات فيها. (39)

وهكذا نجد التزامه بما اشترط علي نفسه من إشباع في التفسير والتأويل لما لم يرد فيه حكم شرعي حيث يهتم بذكر أسباب الروول، وشرح المفردات، وغريب القرآن، والقراءات المتنوعة، ووجوه البلاغة والإعراب وغيرها من المباحث التفسيرية غير الأحكام، وبالتالي فإن الباحث يجد في هذا النوع من التفسير عنده ما يغييه عن كثير من التفسير المكتوبة في غير الأحكام.

تعامله مع القصص والأخبار:

لم يسقط القرطبي رحمه الله القصص والأخبار بالمرة ، وإنما أضرب عن كثير منها كما ذكر في المقدمة. ولكن لوحظ عليه أنه استطرد في بيان بعض الأخبار الإسرائيلية بدون التعقيب عليها والتنبيه علي أنها روايات خرافية لا أساس لها. مثال ذلك استطراده في قصة عوج بن عناق في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا فَتْنُوكَ بِمَا جِئَ بِرَبِّكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَتَقَبَّلَ الْفِتْنَةَ فَنَدَّ بِمَا يَدْعُونَ﴾ (40) فذكر أن طوله كان ثلاثة آلاف وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا ، وكان يحتج السحاب ، أي يجذبه بمحجنه ويشرب منه ، ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله ، وأنه حضر طوفان نوح عليه السلام ولم يجاوز ركبته ، وكان عمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة ، وأنه قلع صخرة علي قدر عسكر موسى ليرضخهم بها ، فبعث الله طائرا فقرها فوقعت في عنقه فصرخته ، وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع وترقى في السماء عشرة أذرع ، فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع فقتله ، ووقع علي نيل مصر فجرهم سنة. (41)

يستغرب من فقيه مثل القرطبي أن يذكر مثل هذه الروايات الثالفة التي كانت مضرب الأمثال في الاختلاق والكذب ، وأعجب من ذلك عدم تعقيقه عليها والتنبيه علي أنها ما ينبغي الاعتماد عليها. وقد قال ابن كثير عنها: " وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخبارا من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأنه كان فيهم عوج بن عنق وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلاث ذراع تحرير الحساب! وهذا شيء يستحي من ذكره. " (42)

وذكر ابن قيم رحمه الله هذه الرواية مثلا لما تقوم الشواهد الصحيحة علي بطلانه، ثم قال: وليس العجب من جرأة هذا الكذاب علي الله، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره، وهذا عندهم ليس من ذرية نوح وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمَا لِبَاقِينَ﴾ ، فأخبر أن كل من بقي علي وجه الأرض من ذرية نوح، فلو كان للعوج - هذا - وجود ، لم يبق بعد نوح... وأيضاً فإن بين السماء

والأرض مسيرة خمسمائة عام، وسمكها كذلك، وإذا كانت الشمس في السماء الرابعة، فبيننا وبينها هذه المسافة العظيمة، فكيف يصل إليها طول ثلاثة آلاف ذراع، حتى يشوي في عينها الحوت؟ ولا ريب أن هذا وأمثاله من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا السخرية والاستهزاء بالرسول وأتباعهم. (43)

مثال آخر ما ذكره في سفينة نوح عليه السلام من أن نوحا مكث يغرس الشجرة مائة عام لعمل السفينة وأنه عملها ببقاع دمشق في سنتين وفي رواية كعب في ثلاثين سنة، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون وكانت من خشب الساج، وكانت ثلاث طبقات ولها ثلاثة أبواب، وغير ذلك من الأخبار الإسرائيلية في شأن هذه السفينة. (44) ولم يعقب بعد ذكرها تعقيا أو تنبيها على عدم ثبوتها. ونعم ما ذكره الآلوسي من التعقيب في هذا المقام حيث قال: " وسفينة الأخبار في تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها، إذ هي غير سالمة عن عيب، فالخري بحال من لا يميل إلى الفضول أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله تعالى في كتابه ولا يخوض في مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ومن أي خشب صنعها وبكم مدة أتم عملها إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم يبينه السنة الصحيحة. " (45)

وفي الجملة فإن الإمام القرطبي رحمه الله قد بذل مجهودا كبيرا في خدمة كتاب الله عز وجل، وحقا يعتبر تفسيره موسوعة، ليس فقط في الفقهيات والأحكام وإنما في أسباب الروول والقراءات والإعراب وبيان الغريب من الألفاظ أيضا. وقد وفي بما التزمه من الشروط ونحوى الصواب والسداد فيما كتب، وكتاب ضخم مثل هذا قل أن يسلم مؤلفه من بعض السهو، ولكن هذا لا يعني بأي حال التقليل من شأن هذا التفسير؛ فإن الكمال ثابت لله فقط. وصدق ما قاله ابن فرحون عندما وصف هذا التفسير: " هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا. " (46) والله أعلم.

الهوامش

- 1- فصلت: 42
- 2- الحجر: 9
- 3- القمر: 17
- 4- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، مقدمة الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان: 8/1، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1427 هـ - 2006 م.
- 5- المصدر السابق: 73/1
- 6- انظر: الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، مشكل الآثار: 133/7، مؤسسة الرسالة بيروت 1415 هـ
- 7- انظر: ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: 294/8، مؤسسة القرطبة
- 8- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 89/1
- 9- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي، سنن الترمذي: 370/10-10 البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، صحيح البخاري: 382/15
- 11- يوسف: 35
- 12- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 77/1
- 13- ابن عبد البر، التمهيد: 278/8
- 14- النساء: 148
- 15- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 200/7
- 16- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 312/4، دار صادر - بيروت
- 17- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي الحاربي، المحرر الوجيز: 215/2
- 18- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوي المعروف بالنحاس، معاني القرآن الكريم: 227/2، جامعة أم القرى - مكة المكرمة 1409 هـ
- 19- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 356/1
- 20- مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم: 489/13، ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التيمي أبو حاتم، صحيح ابن حبان: 510/16، ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند أحمد: 26/18، أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، مسند أبي يعلى: 40/11
- 21- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 437/1
- 22- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه: 449/5، ابن حبان، صحيح ابن حبان: 479/9، ابن حنبل، مسند أحمد: 145/32
- 23- البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو البصري، مسند البزار: 133/2